الطيور البريئة والتحليق في فضاء النص..

مقال تأملي في رواية (أن تقتل طائرًا بريئًا) من تأليف هاربر لي

أن تكون طائرًا بريئًا يجوب في فضاء النص الدرامي من خلال القراءة البريئة التي هي ليست مع أو ضد وليس لديها أحكام مسبقة، فتترك العنان للخيال كي يلتقي بشخصيات تبعد عنه عشرات السنين وآلاف الأميال، يشعر بمعاناتها وأحلامها ورؤاها وكأنه يعيش معها. إنه التوحد الذي تكفله القراءة البريئة للنصوص بشكل عام، والأعمال الدرامية بشكل خاص. هذا التوحد كان قد عمل عليه وأرسى قواعده الكاتب الناضج منذ البداية: التوحد بينه وبين النص، التوحد ما بين الشكل والمضمون، التوحد ما بين القارئ والنص. التوحد هو سمة الأعمال الناضجة وكلما زاد توحدها زاد ازدهارها وقوتها وعمر الاهتمام بها وتلاقيها مع الآخر. والقراءة البريئة هي سمة القارئ العليم (الناضج) على حد قول (جاك دريدا) وهو سمة البحث الرشيد المتأني عن عمق وماهية الأشياء. تلك العلاقة (التوحد والقراءة) أول ما يلفت نظرك تجلياتها في رواية (أن تقتل طائرًا بريئًا) وهي أول ما تهديك بها وتهاجمك أيضًا عن طريقها كاتبتها (هاربر لي).

أن تقتل طائرًا بريئًا ذلك العنوان الذي اختير بعناية فائقة والذي إن دل على شيء إنما يدل على اهتمام كاتبته بالمضمون لا الشكل رغم أن الظرف التاريخي يقول إنها روايتها الأولى فكان من الأحرى بها أن تحاول إثبات صنعتها وموهبتها في صناعة الرواية من ناحية الشكل فلم تجعل له عنوانًا تجاريًا أو يتشابه مع روايات أخرى مشهورة ولم تجعله بشكل سطحي باسم (أتيكوس) بطل الرواية ولكنها جعلته عنوانا يتفجر من خلاله ومن الوهلة الأولى العديد من الرؤى والكثير من التفسيرات والتي هي في اتجاهات عدة: فمن هي الطيور البريئة أو المحاكية وعلامَ تدل وما هي كيفية قتلها وما صعوبته أو سهولته وماذا يصيبك بعدها وهل هذا محل افتخار أم تخاذل؟ وتلك الأفكار تصيبك قبل القراءة. ولكن حتى بعد القراءة تجد الأسئلة تتفجر أكثر وأكثر: هل الطيور المحاكية أو البريئة هي تلك الموجودة بوصفها في النص أم هي تتمثل في الملونين الذين يتعرضون للتفرقة العنصرية أم هو أحد أبطال الرواية (أتيكوس) المنبوذ والمنظور له باحتقار ويكاد يكون معزولاً اجتماعيًا بسبب أفكاره التقدمية في ذلك الحين، أم هي (سكاوت) الطفلة البريئة الخارجة إلى العالم لتحمل هي وجيلها مفاهيم تكاد تقتل براءتها هي وغيرها ويحاول أبوها أن ينقذها هي وأخاها من هذا المصير، أم هو المجتمع بأكمله الذي ستقتل آدميته تحت الأفكار العنصرية وغيرها من الأفكار المتعصبة رغم ما يحمله أفراده وشخصياته من مبادئ وقيم ، أم أم .. وهكذا تتوالى عليك الأفكار والأسئلة إلى ما لا نهاية من قبل (هاربر لي) وعنوانها (أن تقتل طائرًا بريئًا).

السرد وتقنيات أخرى هي التي تعطي الراوية مستواها وأهميتها، ففي (أن تقتل طائرًا بريئًا) كان الإيقاع الهادئ هو السمة الأساسية للرواية، ويأتي ذلك بالأحرى من طبيعة (هاربر لي) الأنثوية الهادئة حتى أنها في حالات النص الأعلى دارماتيكية (مقتل بوب يوويل) كانت تمر في

منتهى الهدوء وكذلك النهاية التي اختارتها المؤلفة (الأب يحمل ابنته للنوم)- تأتى أيضا الإيقاعية الهادئة من طابع الطفولة والبراءة الذي يجتاح الرواية من البداية للنهاية حيث إن الراوي طفلة، تحكي ما يكاد أن يكون مذكرات يومية مقتطفة من حياتها، كذلك طبيعة الحياة المحافظة للشخصية الأساسية بعد الراوية وهي (أتيكوس) المحامي الهادئ الرزين الذي يدير صراعاته بمنتهى الهدوء والتفهم، وكذلك الطبيعة المحافظة لأهالي مايكوم الذين يبدون ذوي طبيعة أرستقراطية. ولكن ذلك الإيقاع الهادئ وذلك الأسلوب في السرد وكذلك النقل (الانتقال من حدث إلى حدث) الذي يأتي كتعاقب الليل والنهار بلا أي مفاجآت يخفيان في طياتهما حالة اجتماعية بركانية إن صح القول فالمجتمع في مايكوم على وشك الانفجار تستشري فيه حُمَّى قلاعية اجتماعية تكاد تودي به إلى التهلكة وهي (التفرقة العنصرية) والأحداث الهادئة تتدفق في اتجاه واحد نحو حوادث قتل مختلفة. إن الظلم الكامن في مايكوم يكاد يطيح بكل شيء حتى براءة الأطفال.

كذلك جعلت (هاربر لي) من (سكاوت) راوي فوق الحدث تارة، وراوي موازي للحدث تارة أخرى، في تناغم غير مخلّ بضمير المتكلم الذي هو لسان حال سرد النص.

كذلك قدمت (هاربر لي) شخصياتها في جزئها الأول وأسهبت في هذا على حال وطبيعة عكس ما هم عليه في الجزء الثاني، وكأن الجزء الأول هو السائد والانطباعي والسطحي في هذه الحياة، والجزء الثاني هو العميق وغير المرئي والمتأمل فيه والمبحوث عنه، مثل شخصية (بو رادلي) الذي نسج حوله الأطفال الطبيعة الغريبة الشريرة وعدم اختلاطه بالآخرين وإطلاق النار على من يشك فيه، ثم نرى حقيقته في الجزء الثاني فنكتشف أنه رجل هجر الحياة والناس من كثرة الظلم والتعدي على الحريات الاجتماعية، وظهر عندما احتاج إليه أحد وهبّ إلى نجدته. وكذلك في شخصية (كال - جيم - هيك تيت) والعديد من الشخصيات الأخرى.

محب للزنوج كلمة تطارد (أتيكوس) المحامي أينما ذهب ومحل امتهان لأولاده وخزي وعار وقعت بسببها (سكاوت) الطفلة الصغيرة والتي تروى الأحداث على لسانها، في مشاكل وصراعات عدة من أجل الدفاع عن أبيها. فهذه الكلمة جعلتها ترد على أحد أقاربها الصغير فرانسيس بكلمة تعادلها (يا ابن العاهرة) والصغيرة لا تعرف معنى (محب للزنوج) ولا معنى (العاهرة) غير أنها رأت أن الأيديولوجية السائدة تجعل من الكلمتين مستوى واحد من التحقير. في ذلك المتجمع يتساوى محبو العهر واللواط والقمار والخمور وكافة الموبقات بمحبي الزنوج. هذا الفكر الاجتماعي العام الذي حارب مارتن لوثر كينج ومالكوم إكس وغيرهما من أجل رفعه وإلغائه من الوعي الاجتماعي العام، ليس فقط في فرض وتطبيق قوانين الحقوق المدنية التي تحارب قوانين جيم كرو ولكن أيضًا على المستوى النفسي العام للجماعة وهو أن تؤمن بالمساواة بين البشر بغض النظر عن ألوانهم وهيئاتهم وانتماءاتهم وهوياتهم. إن هذه الملحمة المعروضة بمنتهى الإنسانية داخل الرواية تدفع عقولنا إلى العديد من القضايا البشرية الحالية التي تحتاج إلى مارتن لوثر أو أتيكوس كما في الرواية كي تنتقل بالتطور البشري الاجتماعي إلى مدى أرحب مما هو عليه الآن ولعلك ترى على هامش النص الطريقة التي تعامل بها النساء والتي لم يكن المجتمع ينتبه إليها في ذلك الحين، فهي مصدر للخطيئة والشر على لسان الراهب،

وهي لا تستطيع أن تكون قاضيًا لعدم نضج عقلها. مثل هذه القضية وقف لها في مصر قاسم أمين وهدى شعراوي وصفية زغلول وملك حفني وغيرهم من أجل تحرير المرأة، وكانت المرأة قد نالت حق الانتخاب فقط في ستينات القرن الماضي. وفي النص المقدم ترصد الأحداث على يد فتاة (هاربر لي) وكان محرك الأحداث وضمير الرواية فتاة هي (سكاوت).

والآن بعد أعوام وأعوام من تلك القضايا التي داخل نص رواية مثل (أن تقتل طائرًا بريئًا) وذلك البعد الزمني الواضح في (الزمن الدرامي - زمن الكتابة - طبيعة الشخصيات - شكل الحياة - القضية المقدمة) نجد العالم والمجتمع الذي كان يعاني من حقوق ضائعة هي اليوم طبيعية ويكفلها القانون، كم كافح من أجلها العديد والعديد من البشر وكم ذهب لأجلها ضحايا وشهداء أيضًا، يجعل لنا أملاً في حل قضايانا المعاصرة والوقوف أمامها وتحديها على طريقة (أتيكوس) بالهدوء والرزانة وعدم رفض المجتمع ذاته ولكن رفض مبدئه في دفاع مستميت سلمي، يعلم الأطفال ويرفض بالقانون ويتحدى بالمنطق وذلك كله إلى ما لا نهاية حتى وإن كانت النتائج غير مؤكدة والانتصار ليس ذا نسبة مئوية كبيرة.

تحرير

أحمد عبد الكريم محمود فراج